

النزعات والحروب وارتباطها بالخرائط السياسية

في منطقة غرب آسيا

اعداد الباحث السياسي : يحيى دايبخ

"من ينسى الخرائط سيكون من المتعذر عليه أن يفهم تحدياتها أو يهزمها"

(روبرت كابلان)

أحد أشهر متخصصي الجغرافيا السياسية في العالم في كتابه "انتقام الجغرافيا".

تصنع الجغرافيا السياسة دائماً على الأغلب ، ولعل تلك الأهمية المتصاعدة لخرائط الجغرافيا السياسية دفعت المحللين إلى استخدام الخرائط في صناعة نماذج لتفسير قضايا خارج نطاق الجغرافيا السياسية، مثل قضايا الاقتصاد والتوازنات العسكرية.

لذا كان لزاماً تقديم مجموعة من الخرائط شديدة الأهمية لتعطينا نظرة مختصرة إلى حد ما، حول دوافع ومحركات الصراعات الجارية اليوم ، لا سيما في غرب آسيا . حيث تشكل غرب آسيا عن طريق تغيير شكل الحدود السياسية والديموغرافية.

فيما يلي عدد من الخرائط يمكن أن تكون مفتاح لفهم منطقة غرب آسيا.

أولاً: تاريخ الخرائط وعلم الجغرافيا

هو علم يدرس الأرض والظواهر الطبيعية والبشرية عليها، ولفظ الجغرافيا Geography لفظ إغريقي هو في الأصل Geographica، مؤلف من شقين أولها Geo ويعني الأرض، وثانيهما Graphica ويعني الوصف أو الصورة وعلى هذا الأساس فالجغرافية هي "وصف الأرض أو صورتها".

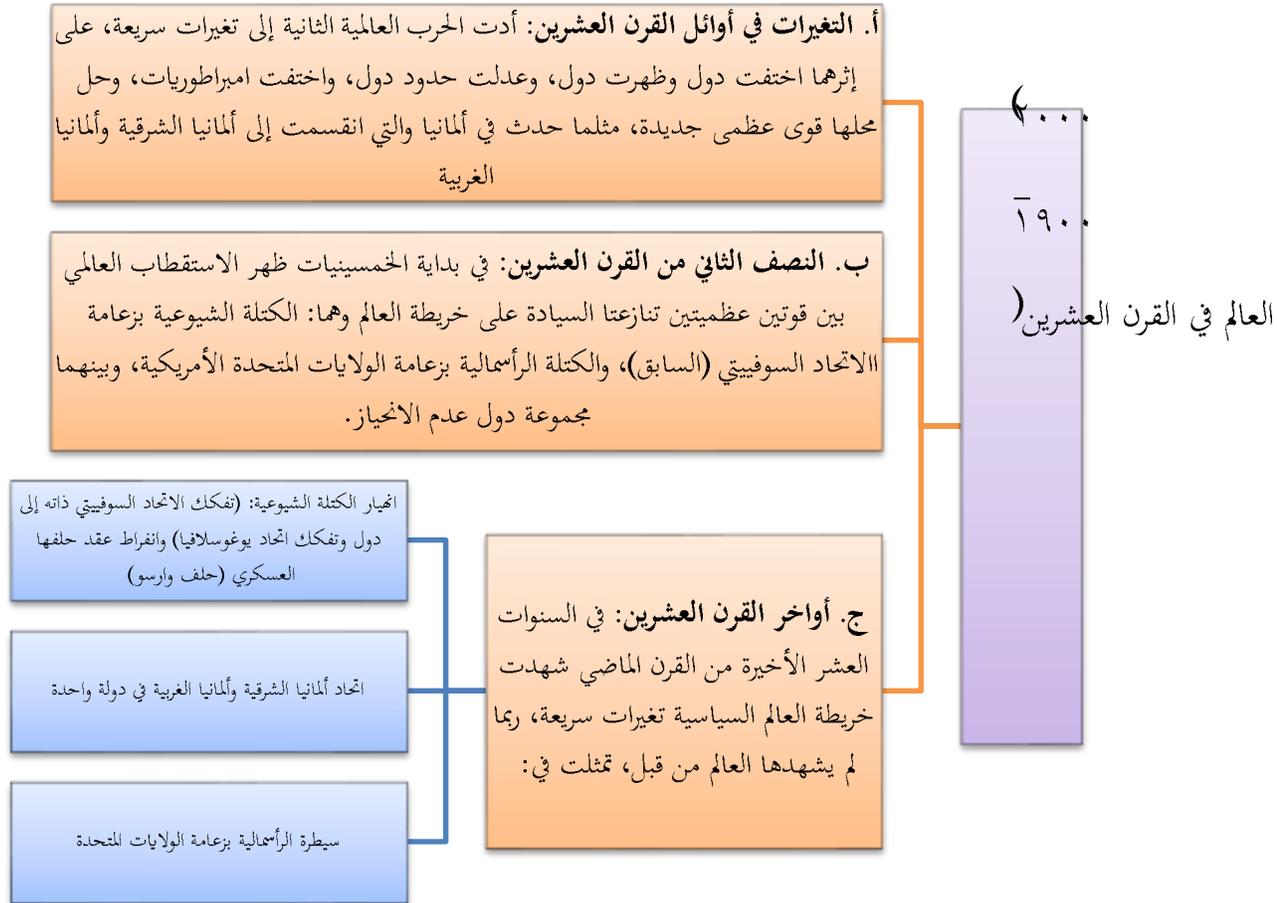
تم الاتفاق بين العلماء على تقسيم الجغرافيا عبر العصور على ثلاثة أقسام رئيسية، وهي:

- **الجغرافية الطبيعية** : وهي التي تهتم بدراسة طبيعة الأرض من حيث البنية الجيولوجية والظواهر الميتورولوجية أي " الأرصاد الجوية و الجو أو علم الظواهر الجوية "، والمحصولات النباتية والحيوانية التي لا دخل للإنسان فيها.
- **الجغرافيا الفلكية**: وتهتم بدراسة شكل الأرض وحجمها وحركتها وكرويتها وعلاقتها بالكواكب الأخرى.
- **الجغرافيا السياسية**: وتبحث في أقطار الأرض وحدودها السياسية ومشكلاتها وسكانها.

: تطور الخريطة السياسية

ضمت خريطة العالم السياسية في مطلع العقد الثاني من الألفية الثالثة أكثر من ٢٠٠ دولة، منها ١٩٣ دولة على وجه التحديد ذات عضوية كاملة بالأمم المتحدة إلى جانب دول أخرى غير كاملة العضوية بالمنظمة الدولية (فلسطين، الفاتيكان) كما أن بعض الدول غير منضمة للأمم المتحدة .

إن السمة الأساسية لخريطة العالم السياسية هي التغير المستمر، سواء ما حدث في الماضي أو الوقت الحاضر، أو ما سوف يحدث في المستقبل، وبعض هذه التغيرات كانت بطيئة وبعضها الآخر كان سريعاً للغاية، لعل ما حدث في القرن العشرين من تغيرات على خريطة العالم السياسية خير مثال على ذلك، ويتضح من خلال الشكل الآتي:



أ. العوامل الجغرافية التي تؤثر على مستقبل خريطة العالم السياسية

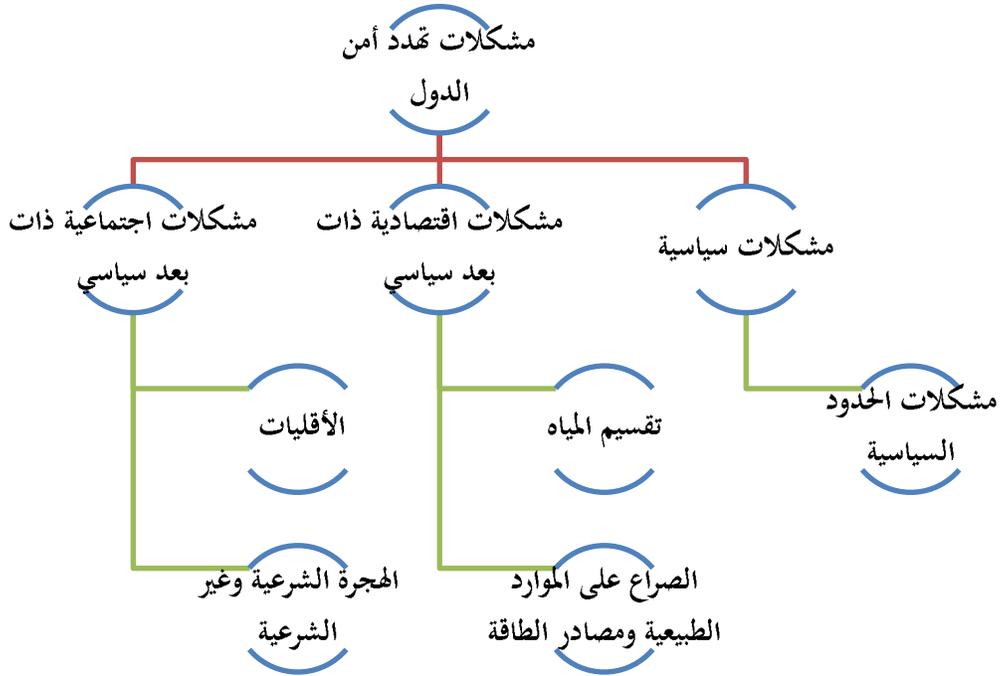
ظهر في السنوات الأخيرة من القرن العشرين وأوائل الألفية الثالثة عددًا من العوامل، والتي أثرت بكل كبير على مستقبل خريطة العالم السياسية، وأهم هذه العوامل هي:

- انتهاء الصراع الأيديولوجي بين الكتلة الشيوعية والكتلة الرأسمالية.
- العولمة وظهور الشركات المتعددة الجنسيات " عابرة للقارات " التي أثرت على تطور خريطة العالم، وهددت السيادة القومية للدول المختلفة.
- البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وتدخلاتهما في السياسات الداخلية للدول، واثرت ذلك على استقرارها وسيادتها.
- سباق التسلح خاص في منطقة غرب آسيا.
- ثورة الاتصالات الحديثة وأثرها في نشر الوعي بين الشعوب، والإستقرار السياسي للدول.
- مشكلة اللاجئين والهجرة غير الشرعية (غير الرسمية).
- الصراع على المياه، خاصة في المناطق المهددة في مواردها المائية.

ب. المشكلات السياسية:

لما كانت الدول تشكل أهم وحدة سياسية على خريطة العالم والهدف الأسمى الذي تسعى إليه كل دولة هو أمنها من الداخل ومن الخارج، فإن أي عائق أمام هذا الهدف الأسمى يعد بمثابة مشكلة سياسية، فالأخيرة هي تهديد للدولة من الداخل أو الخارج يمس سيادتها على أراضيها أو استقرار شعبها وتماسكه.

إن المشكلات التي تهدد أمن الدول سواء من الداخل أو من الخارج في معظمها إرث الدول الإستعمارية، خلفته في مستعمراتها السابقة قبل تحررها، ومن أشهر هذه المشكلات المزمنة:



ملاحظة: يمكن الاكتفاء بهذا القدر بالنسبة للمشكلات السياسية أو التوسع وأعطاء أمثلة حول مشاكل بعض الدول مع خرائط...

• قراءة في تطور الخرائط السياسية في غرب آسيا

١. الهلال الخصيب .. مهد الحضارة



سُميت بـ"هلال الخصيب" بسبب تربتها الخصبة، و"هلال" لأن أرضها تشبه الهلال، وهو مصطلح جغرافي أطلقه عالم الآثار الأمريكي جيمس هنري برستد على حوض نهري دجلة والفرات، والجزء الساحلي من بلاد الشام. هذه المنطقة كانت شاهدة لحضارات عالمية، وأهمها العصر الحجري الحديث، والعصر البرونزي، حتى ابتداء الممالك والمدن في جنوب الرافدين، وشمال جزيرة الفرات العراقية، وغرب الشام.

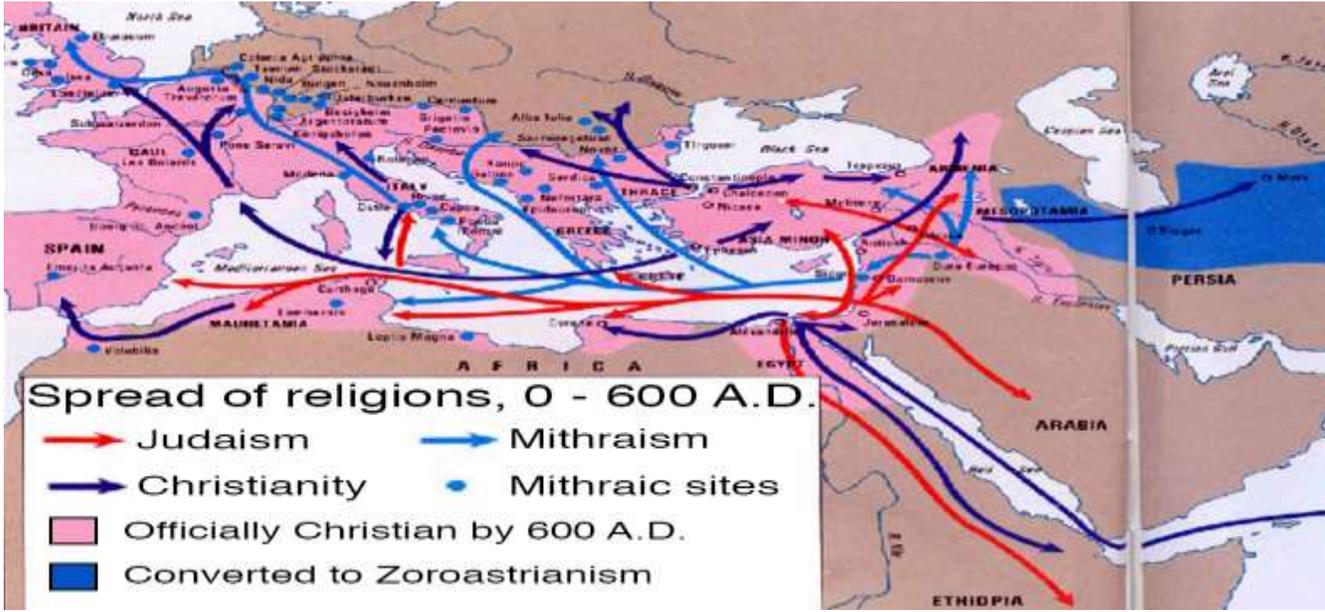
يستخدم هذا المصطلح عادة في الدراسات الأثرية، إلا أن له استخدام سياسي أيضاً، حيث استخدمه أنطون سعادة ، منطلقاً من التداخل الثقافي في هذه المنطقة الجغرافية عبر التاريخ ، ليبرهن على وجود "أمة" واحدة تجمع سكان هذه البيئة الجغرافية ، وأسس لذلك الحزب السوري القومي الاجتماعي، ونادى بوحدة الهلال الخصيب تحت اسم سوريا الكبرى.

أطلق على هذه المنطقة هذه التسمية تمييزاً لها كمنطقة "سامية" اللغة عن منطقة شبه الجزيرة الكبرى شرق البحر الأحمر "سامية" اللغة أيضاً ؛ ولكونها منطقة غنية بالمياه وتمتاز تربتها بالخصوبة التي تسمح بالزراعة فيها بسهولة، مما سهل الزراعة فيها ابتداءً من الزراعة البعلية .

وفي التراث الأسطوري الديني للمنطقة يقال أيضاً أن النبي نوح كان لديه ثلاثة أبناء :سام و حام و يافت ، أعطى نوح هذه المنطقة لابنه سام فلذلك سميت "سامية".

كما حصلت فيها أحداث بشرية مهمة كتطور فكرة الآلهة السماوية، بدلاً من عبادة ظواهر الطبيعة، ويستخدم تعبير الهلال الخصيب أيضاً للتعبير عن مناطق بداية الحضارات البشرية، المصطلح يعرف الآن مناطق بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين حصراً العراق وسوريا القديمة، في مجال الدراسات الحديثة.

٢. الأديان في غرب آسيا



في الحقيقة لقد أعطى غرب آسيا العالم أربعة أديان، لكن هذه الخريطة تظهر الثلاثة الأولى فقط، الأولى اليهودية، التي انتشرت من خلال الهجرة الطبيعية وبعدها فرق الرومان الإسرائيليين في القرنين الأول والثاني الميلادي، ودين آخر يُسمى "الميثراسية"، وهو دين انتشر في تركيا الحالية وأرمينيا وحتى بلاد الرومان، ولم تلبث تلك الديانة أن استُبدلت بالمسيحية التي أصبحت الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، الأوروبيون غالبًا ما ينسون ذلك، لكن هذه المنطقة هي التي خرجت منها أديانهم!

في القرن السابع الميلادي بدأ الإسلام بالانتشار خارج غرب آسيا، في خرائط لاحقة سنصور الإمبراطورية الإسلامية وكيف انتشرت مع الزمن.

جاء رسول الله النبي محمد (ص) بالإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي، وبينما انتشر المسلمون في الجزيرة العربية، بدأت الخلافة الإسلامية بالتوسع، لقد توسعت تلك دولة الإسلام في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطوريات الأخرى على وشك الانهيار، وفي وقت قصير للغاية، وبعد وفاة النبي محمد (ص) وخلال أقل من ثلاثين سنة، كان المسلمون قد سيطروا على غرب آسيا بأكمله، شمال أفريقيا، وبلاد فارس وأجزاء من جنوب أوروبا، لقد كانوا ينشرون الإسلام والعربية والهوية المشتركة التي لا تزال تحدد المنطقة حتى اليوم.

٣. ستة قرون من صعود الدولة العثمانية وهبوطها (١٥١٧ - ١٩٢٤م)



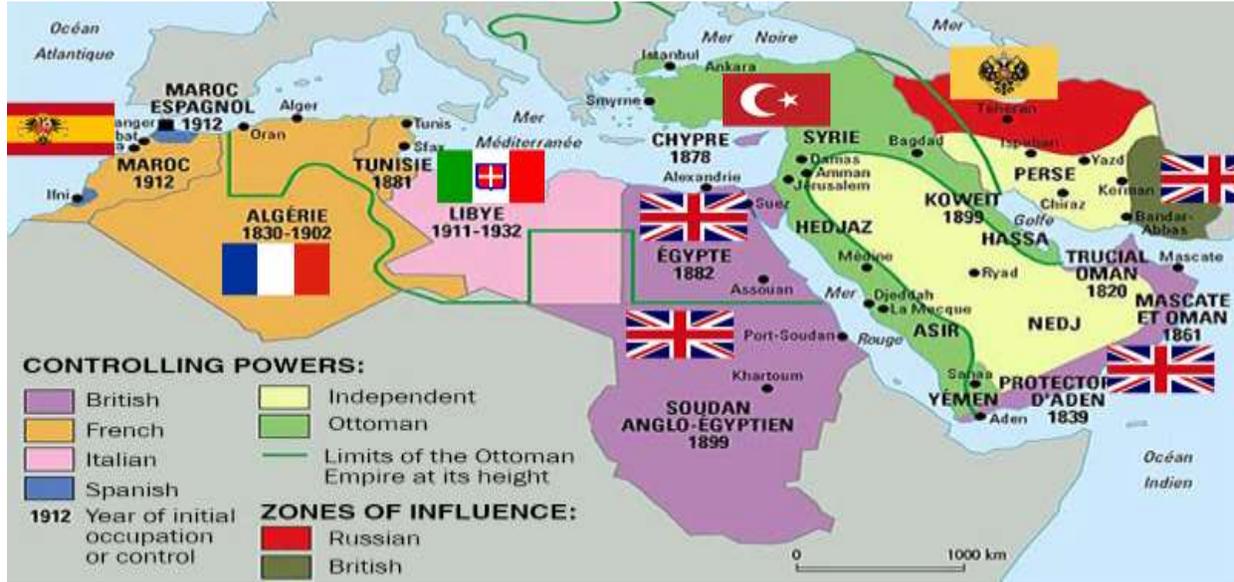
تُسمى "العثمانية" نسبة لأول مؤسسها هي إمبراطورية إسلامية أسسها عثمان الأول بن أرطغرل، واستمرت قائمة لما يقرب من ٦٠٠ سنة، وبالتحديد من ٢٧ يوليو ١٢٩٩م حتى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م.

بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاثة: أوروبا وآسيا وأفريقيا، حيث خضعت لها كامل آسيا الصغرى وأجزاء كبيرة من جنوب شرق أوروبا، وغربي آسيا، وشمالي أفريقيا. وصل عدد الولايات العثمانية إلى ٢٩ ولاية، وكان للدولة سيادة اسمية على عدد من الدول والإمارات المجاورة في أوروبا، التي أضحي بعضها يُشكل جزءًا فعليًا من الدولة مع مرور الزمن، بينما حصل بعضها الآخر على نوع من الاستقلال الذاتي.

كان للدولة العثمانية سيادة على بضعة دول بعيدة كذلك الأمر، إما بحكم كونها دولاً إسلامية تتبع شرعًا سلطان آل عثمان كونه يحمل لقب "أمير المؤمنين" و"خليفة المسلمين"، كما في حالة سلطنة أنتيشيه السومطرية التي أعلنت ولاءها للسلطان في سنة ١٥٦٥م، أو عن طريق استحواذها عليها لفترة مؤقتة، كما في حالة جزيرة "أنزاروت" في المحيط الأطلسي، والتي فتحها العثمانيون سنة ١٥٨٥م.

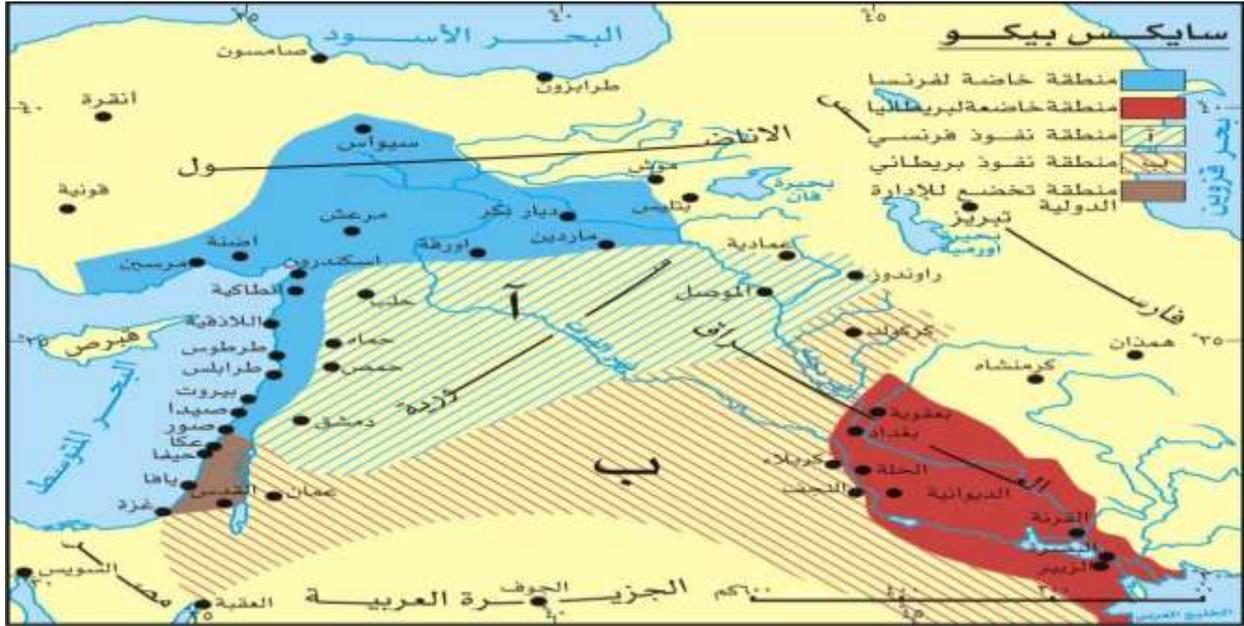
أضحت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان الأول "القانوني" (حكم منذ عام ١٥٢٠م حتى عام ١٥٦٦م)، قوة عظمى من الناحيتين السياسية والعسكرية، وأصبحت عاصمتها القسطنطينية تلعب دور صلة الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي، وبعد انتهاء عهد السلطان سالف الذكر، الذي يُعتبر عصر الدولة العثمانية الذهبي، أصيبت الدولة بالضعف والتفسخ وأخذت تفقد ممتلكاتها شيئاً فشيئاً،

٥. كيف كان يبدو غرب آسيا في ١٩١٤



هذا العام كان محوريًا، نقل غرب اسيا تدريجيًا من ٦٠٠ عام من الحكم العثماني إلى أكثر من ٥٠ سنة من الحكم الأوروبي. لقد كان حكام أوروبا الغربية يزدادون ثراء بينما يقسمون أفريقيا، وبما في ذلك الدول العربية في شمال أفريقيا، في مستعمرات يحكمونها. وبعد سنوات قليلة من الحرب العالمية الأولى، أعاد الأوروبيون تشكيل خريطة الإمبراطورية العثمانية بين الأوروبيين، إن فهم الحدود الفاصلة بين المستعمرات التي حكمتها بريطانيا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا مهمة للغاية لفهم المنطقة اليوم، ليس فقط بسبب تأثيراتها على ثقافة الدول والشعوب، ولكن الحدود التي رسمتها الإمبراطوريات الأوروبية بين مستعمراتها أصبحت فيما بعد الحدود الرسمية لاستقلال تلك الدول، سواء كانت تلك الحدود منطقية أم لا!

٦. سايكس بيكو، الاتفاقية التي قسمت غرب آسيا



هذه المعاهدة، التي وافقت فيها فرنسا وبريطانيا (وروسيا) سرًا على تقسيم مناطق غرب آسيا التي كانت تحكمها الإمبراطورية العثمانية. أصبحت الحدود بين "المناطق" الفرنسية والبريطانية في وقت لاحق هي الحدود بين العراق وسوريا والأردن.

دومًا ما يستشهد باتفاقية سايكس بيكو كسبب للحروب والعنف والتطرف في المنطقة، وربما تكون تلك النظرية شديدة البساطة، لكن لها وجهتها بالفعل!

تعرف اتفاقية سايكس بيكو بأنها اتفاق سري تمّ بين المملكة المتحدة وفرنسا بمصادقة من الإمبراطورية الروسية لأجل تقسيم منطقة الهلال الخصيب بين بريطانيا وفرنسا، وذلك من أجل تحديد من مناطق النفوذ في غرب آسيا بعد انهيار الدولة العثمانية المسؤولة عن هذه المنطقة أثناء الحرب العالمية الأولى.

تمّ عقد الاتفاقية بين شهر نوفمبر لعام ١٩١٥م وشهر مايو لعام ١٩١٦م، وذلك بمفاوضات سرية بين البريطاني مارك سايكس، والدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو، ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الاتفاقية كانت على هيئة تبادل وثائق تفاهم بين وزارات خارجية بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية، إلا أنه تم الكشف عن هذه الاتفاقية بوصول الشيوعيين إلى سدة الحكم في روسيا عام ١٩١٧، الأمر الذي أثار حفيظة الشعوب التي تمسها هذه الاتفاقية، كما أخرج بريطانيا وفرنسا، علماً أنّ ردة الفعل الشعبية الرسمية العربية المباشرة قد برزت في مراسلات الحسين ومكماهون.

تمّ تقسيم منطقة الهلال الخصيب بموجب الاتفاق، وقد أخذت فرنسا الجزء الأكبر من الجناح الغربي من سوريا ولبنان ومنطقة الموصل في العراق، وقد امتد نفوذ بريطانيا من طرف بلاد الشام الجنوبي متجهًا إلى

الجانب الشرقي ليشمل بغداد والبصرة وكافة المناطق الواقعة بين المنطقة الفرنسية في سوريا والخليج العربي، كما قرروا وضع فلسطين تحت الإدارة الدولية المتفق عليها بالشورى بين فرنسا وبريطانيا وروسيا، إلا أنّ الاتفاق قد نصّ على منح مينائي عكا وحيفا إلى بريطانيا، شرط أن تمتلك فرنسا حرية استعمال ميناء حيفا، في حين وهبت فرنسا بريطانيا حرية استخدام ميناء الإسكندرونة الواقع في حوزتها.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّه في الوقت الذي كانت العرب تسعى فيه لأخذ اعتراف بحقهم في تأسيس دولة عربية، كانت تقام مفاوضات سرية بين دول فرنسا وبريطانيا وروسيا لأجل تقسيم الدولة العثمانية والتي من ضمنها البلاد العربية، علماً أنّ هذه الدول في الوقت ذاته كانت تنتقد ألمانيا لخرقها حرمة العقود والمعاهدات الدولية، مؤكّدة أنّها مستمرة في الحرب معها إلى أن تتوقف عن خرق المواثيق.

تمّ التوقيع عام ١٩١٥ على اتفاقٍ سري بين فرنسا وبريطانيا وروسيا ينص على حق روسيا في الاستيلاء على المضائق التركية والمناطق المجاورة لها، مثل: بحر الدردنيل وبحر مرمرة وجزء من شاطئ آسيا الصغرى، وذلك مقابل حصول القسطنطينية على حريتها، مع ضمان حرية الملاحة في مناطق المضائق، كما طالبت بضرورة اعتراف روسيا بحقوق فرنسا وبريطانيا في امتلاك أقاليم تركيا الآسيوية، على أن يتمّ تحديد هذه الحقوق بمقتضى اتفاقٍ آخر خاص لذلك، كما طالبت بإخضاع الأماكن المقدسة وشبه الجزيرة العربية لحكم إسلامي مستقل، إضافةً إلى ضمّ جزء من إيران إلى منطقة النفوذ البريطانية.

٧. وعد بلفور (١٩١٧)

وعد بلفور هو عبارة عن بيان من قبل بريطانيا اصدر في تاريخ ٢-١١-١٩١٧م، وتعبّر فيه بريطانيا عن دعمها لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وكان هذا البيان عبارة عن رسالة بعثت من قبل وزير الخارجية البريطانية، آرثر جيمس بلفور إلى أحد زعماء الحركة الصهيونية وهو ليونيل روتشيلد وقد جاء هذا البيان بالتناقض مع اتفاقية سايكس بيكو ومراسلات أمير مكة الحسين بن علي و السير هنري مكماهون، وقد عملت الحكومة البريطانية على حشد الرأي العام اليهودي في الولايات المتحدة بشكل خاص، وذلك لدعم قوات الحلفاء ضد القوى المركزية أثناء الحرب العالمية الأولى والتي كانت عام ١٩١٤-١٩١٨م، كما أن السبب وراء دعم بريطانيا لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، هو ضمان وجود طريق اتصال حيوي للمستعمرات البريطانية في الهند، وذلك بأن تساعد التسوية في فلسطين الشعب اليهودي الداعم والموالي لبريطانيا على حماية نهجها المتبع في قناة السويس في مصر، وقد كانت النتيجة تأييد قوى التحالف الرئيسية إعلان بلفور وتم ضمه للانتداب البريطاني في فلسطين، وأيضاً تم الموافقة على ولاية بريطانيا لفلسطين رسمياً من قبل عصبة الأمم المتحدة، غيرت بريطانيا من سياستها وقامت بإعلان توصية بمهاجرة ما يقارب خمسة وسبعون ألف مهاجر إلى فلسطين وتوقف الهجرة عام ١٩٤٤م، حيث أثار هذا الموضوع جدلاً واسعاً، فالفلسطينيون المقيمون في المنطقة اعترضوا على هذا القرار، بينما أدانت الحركة الصهيونية هذه السياسة الجديدة واتهمت بريطانيا بالتحيز للعرب، وبقي هذا الجدل قائماً حتّى تمّ إعلان ما يسمى بدولة إسرائيل وذلك عام ١٩٤٨، أثناء اندلاع الحرب العالمية الثانية.

كان نص وعد بلفور كالاتي: (إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى).

جاء هذا الوعد متناقضاً مع مراسلات حسين ومكماهون بتقديم الدعم لإنشاء دولة عربية مستقلة هي فلسطين، والذي قامت بريطانيا لاحقاً بنفيه عندما احتاجت للعرب ودعمهم ضد الدولة العثمانية، وعند حاجتها أيضاً للدعم الفرنسي الروسي وعدت في اتفاق سايكس بيكو عام ١٩١٦ بالسيطرة على المنطقة مع حلفائها بما فيها فلسطين، وقد كان الهدف الأساسي لبريطانيا من هذا الإعلان هو الحصول على مساعدة الروس و اليهود في أمريكا في إدخال أمريكا بالحرب العالمية الأولى واقناع روسيا بعدم التخلي عنها، أما بعد موت مؤسس الحركة الصهيونية هرتزل، تحولت القيادة في الحركة الصهيونية إلى حاييم وايزمان، حيث قام وايزمان بالإصلاح بين الجناح الإجرائي للحركة الصهيونية والجناح السياسي لها، فالجناح الإجرائي هو الذي سعى إلى تعزيز الاستيطان اليهودي في فلسطين، أما الجناح السياسي فقد شدد على إقامة دولة يهودية، وقد استطاع وايزمان الحصول على بعض التنازلات من السلطان التركي الذي حكم فلسطين، رغم ذلك أصدرت بريطانيا وعد بلفور، وتم بموجبه إعطاء فلسطين لبريطانيا العظمى عام ١٩٢٠.

٨. فلسطين - التوسعة الصهيونية والديموغرافيا (١٩٤٦-٢٠١٠)



سُئلت جولدا مائير يوماً عن حدود دولة إسرائيل، فأجابت: "عندما نصل إلى الحدود سنخبركم"

في حديثنا عن "التوسعة الصهيونية" مُحاولة لفهم كيف تحولت الخريطة أعلاه من الرقم ١ إلى الرقم ٤ ابتداءً من اليمين إلى اليسار. التوسعة الصهيونية، والحدود الذهنية للصهاينة وحقيقة الحدود الجغرافية وتنفيذ خطتهم للتوسعة وفشلها وخطتهم البديلة سيتم إختصارها في الدراسة الآتية.

التوسعة الصهيونية أو حدود إسرائيل لا يُمكن تعريفها ولا وضع الخطوط فيها، وفي تصريح سابق للرئيس الفلسطيني محمود عباس من برلين أنه على إسرائيل الجلوس على طاولة المفاوضات لترسيم الحدود، لكن هذا غير مناسب لإسرائيل أبداً، فالدولة الصهيونية قامت منذ البدء على أساس وجود بلد قومي لليهود مطاطي يكبر و يصغر بحسب موازين القوى في العالم.

يقول في ذلك عضو الكنيست السابق الصحفي أوري أفنيري: "إن قيام الدولة العبرانية في الماضي و الدولة الصهيونية في الحاضر، لم يكن يستند إلى قوتها الذاتية وإنما لضعف الشعوب القاطنة في فلسطين"، من هذا يتبين أن الدولة الصهيونية تكبر و تصغر بحسب وجود و فراغ القوة العربية في فلسطين ، دليلاً على ذلك هو ما حدث بعد أن ضمت إسرائيل مناطق كبيرة و شاسعة من الأراضي العربية في عام ١٩٦٧ وكان بن جوريون يصرح في أكثر من محفل بأن هذه الأراضي هي جزء من الوطن القومي اليهودي، غير أن هزيمة إسرائيل في عام ١٩٧٣ جعلت بن جوريون يتراجع عن حدوده التي صرح بها أثناء النصر و يعود ليقول بأن حدود إسرائيل هي حتى " نهير مصر" أو "the brook of Egypt" .

واقعاً فإن ما جُل ما يتكلم عنه الإسرائيليين المتدينين بأن حدود إسرائيل تحددها الدوافع العقائدية المذكورة في التوراة كعبارة "من النيل إلى الفرات" وهي عبارة مذكورة في التوراة ويستخدمها الصهاينة في ترسيم حدود وطنهم القومي، لكن هذا فقط ما يُسمى بالحدود التاريخية و الجغرافية لكنها عبارة كباقي عبارات التوراة فمضمونها مختلط وتفسيرها مطاط من شخص لآخر، فحين ردد النمساوي "هرتزل" بأن حدود الدولة اليهودية هي من نهر مصر إلى الفرات، صرح حاخام يهودي يدعى "فيشمان" بأن الحدود هي من نهر مصر للفرات مضيفاً إلى ذلك أجزاء من لبنان وسوريا.

إن عبارة "من النيل إلى الفرات" ماهي إلا نتاج العقلية العقائدية ، وإنما على الرغم من كونها حقيقة راسخة في أحلام الصهاينة إلا إنها ليست الحقيقة الكاملة لمشروع التوسع الصهيوني، وهي مضمون حدود جغرافية و تاريخية فقط ، وإلا لما كانت إسرائيل قد انسحبت من سيناء التي هي بحسب التراث الديني اليهودي أرض مقدسة بينما في ذات الوقت قامت باحتلال الجولان التي لا ذكر لها في التراث الديني اليهودي.

فالحدود المرسومة في الذهنية الصهيونية مختلفة تماماً عن الحدود العقائدية وهي ما تُسمى الذهنية الصهيونية ولعل أفضل ما يُمكن أن يعرفها هو قول هرتزل عن حدود الدولة اليهودية " كلما زاد عدد المهاجرين، اتسعت رقعة الأراضي" هذه هي الرؤية التي قامت على أساسها الصهيونية ببناء وطن قومي لليهود، لا حدود له .

هل نجحت إسرائيل بتنفيذ هذا المخطط ؟

الفشل الأول :

يقول المسيري رحمه الله " الصهاينة يتسمون بغباء تاريخي عميق بقبولهم أن يؤسس المشروع الصهيوني في فلسطين في قلب و وسط الأمة العربية والعالم الإسلامي مما سيفتح لهم بوابات صراع لا تنتهي".

ظن الصهاينة بأن لديهم القدرة على جعل فلسطين أرض بلا شعب وبذلك أوهموا يهود العالم بأن هذه الأرض لا شعب فيها، لكن أولى مراحل فشل التوسع الصهيوني كانت هذه الرؤية.

فحين بدأت إسرائيل ببناء وطنها القومي تفاجأت إنها وبرغم تهجيرها لما يُقارب أربعة ملايين لاجيء فلسطيني مازالت تعاني من جبهات المقاومة المفتوحة والتي تضيق الخناق على اليهود اللذين جلبتهم من العالم على أساس أنهم سيعيشون في وطن مفعم بالراحة و الرفاهية ، تنبه الصهاينة أن هناك ملايين من الفلسطينيين في غزة و الضفة الغربية لا يمكنهم قمعهم ولا يمكنهم تسويغهم ضمن الدولة الصهيونية، لذلك أدرك شارون منذ البداية أن الانسحاب من غزة ضرورة لحماية ما تم بناءه لهذه الدولة.

الفشل الثاني :

إسرائيل تواجه أزمة ديموجرافيا ، فالمناطق التي تقوم بالاستيلاء عليها كقاعدة جغرافية لوطن اليهودي لم تتمكن من ملأها باليهود من العالم وذلك بسبب أزمة الهجرة اليهودية ، فبعد مرور ما يُقارب ٦٤ عاماً من احتلال و استيطان فلسطين لا تزال إسرائيل دولة ذات أقلية يهودية ، فعلى سبيل المثال، يهود أمريكا والذين هم أكبر نسبة يهود في العالم يرفضون الهجرة لإسرائيل وفي كل عام لا يُهاجر إلى إسرائيل سوى حمولة طائرتي جمبو كل عام ، وغالباً هم من المسنين الذين تعتبرهم إسرائيل عبء عليها لأنها تقدم لهم خدمات أكثر مما تأخذ منهم ، وفي هذا الشأن أكد رئيس الوكالة اليهودية " سالي مريدور" بأن عدد اليهود المهاجرين لفلسطين تراجع من نحو ٧٠ ألف مهاجر في العام ٢٠٠٠ إلى ٤٣ ألفاً في العام ٢٠٠١، ومن ثم إلى ٣٠ ألفاً في العام ٢٠٠٢، ولم يتعد الرقم ١٩ ألفاً حتى نهاية العام ٢٠٠٣،

وفي المقابل فإن أعداد المهاجرين من إسرائيل للخارج في تزايد وهو ما يسمونه داخل إسرائيل بـ " غزو الديسابورا " وهو الشتات أي تفكك اليهود و هجرتهم من موطنهم الأصلي إسرائيل إلى الخارج ، وقد سجلت الإحصاءات الإسرائيلية أن هناك ما يُقارب ٤٠٠ ألف يهودي لن يعودوا لإسرائيل خاصة وإن معظمهم يحملون جوازات سفر مختلفة.

من هنا نستنتج أن إسرائيل تُعاني من أزمة سكانية لا يُمكن معها أن تجعل من الدولة الصهيونية إمبراطورية سكانية كاملة تحكم العالم ، علاوة على أن عدد الفلسطينيين يزداد بشكل كبير في الأراضي الفلسطينية مما يقلب خيار التسوية في حل الدولة إلى دولتين، فالكثافة السكانية ستصب في مصلحة الفلسطينيين الأكثر عدداً.

أضف إلى ذلك بأن إسرائيل هي صنيعة غربية كأداة لبسط نفوذ الغرب عبر الدولة الصهيونية ، فهي دولة وظيفية ولن يُسمح لها بأن تقوم بأكثر من هذه المهمة .

الخطة الصهيونية البديلة ؟

بعد فشل الخطة الصهيونية في التوسعة الجغرافية، اتجهت المنظومة الصهيونية لمسار آخر يُعنى بتوسعة إسرائيل لكن إقتصادياً.

يحاول الصهاينة تطبيق هذا النموذج من التوسعة الإقتصادية من خلال طرح ما يُسمى " شرق أوسط " الجديد، وتحويل العراق إلى بلد متناحر منزوع الهوية و لبنان إلى دويلات سنية، شيعية، مارونية و درزية و الإستيلاء على دمشق وهز الحالة السياسية في مصر وجعلها غير مستقرة ، تصبح بعد ذلك "إسرائيل" في قلب كل هذه الدول هي الدولة الإقتصادية الأقوى فيتنسى لها بعد ذلك قيادة المنطقة بشكل ميسر.

ومن أهم الطرق المتبعة في تحقيق التوسعة الإقتصادية هي ما يُعرف بالصهيونية التوطينية ، وهي مختلفة عن الإستيطانية ، حيث أن الإستيطانية هي التي يهاجر فيها اليهودي من بلاده إلى فلسطين و يستولي على ممتلكات الشعب الفلسطيني هناك، بينما التوطينية فهي حين يكتفي الصهيوني بالدعم المالي و السياسي و المعنوي للكيان الصهيوني دون أن يضطر للهجرة من بلده الى فلسطين ، وفي هذا الإطار تدخل مصطلحات كثيرة كالصهيونية التقنية و الصهيونية الإلكترونية وهي خدمة الكيان الصهيوني من بعيد عن طريق التقنية كإرسال إختراعاتهم أو إسهاماتهم المالية و العلمية لإسرائيل وهم في ديارهم كأمریکا و أوروبا. ومن أهم الأمثلة على ذلك:



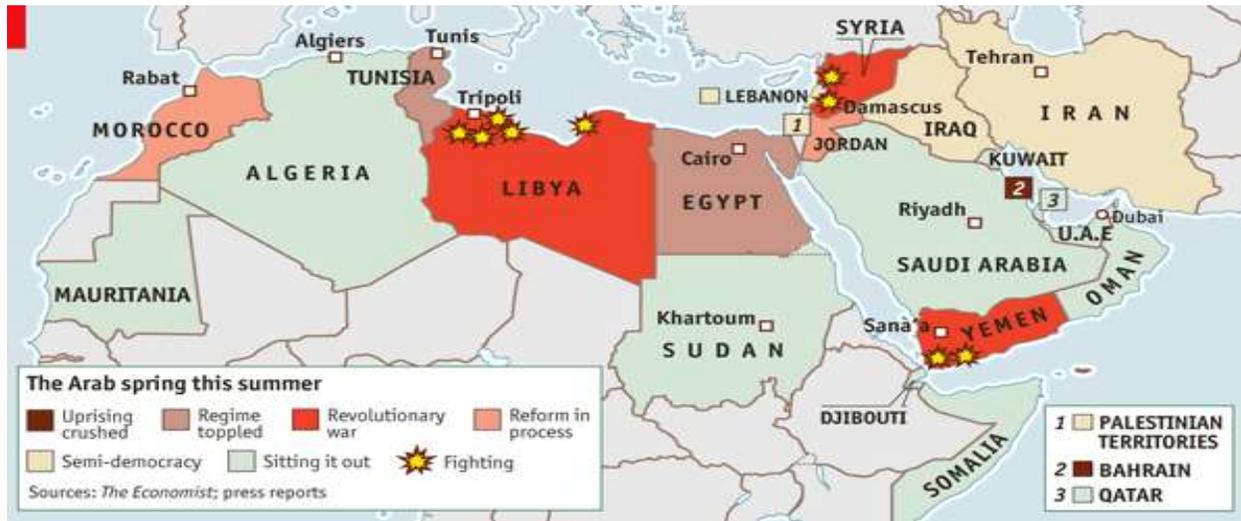
البارون إدموند دي روتشيلد، فرنسي كان من مناصري الصهيونية وقدم للكيان الصهيوني الدعم المالي في بداياته حتى يُذكر أنه لولا أمواله لتأخر قيام هذا الكيان الغاصب ، توفي إدموند في باريس ثم تم نقل جثمانه لإسرائيل.

مثال آخر:



الألماني الثري البارون موريس دي هيرش، وهو مؤسس جمعية الإستعمار اليهودي، كان يعمل على نقل اليهود للأرجنتين كما كان المخطط قبل تقسيم الدولة العثمانية ثم تم بعد ذلك تحويلهم إلى كندا.

٩. أحداث ما يسمى الربيع العربي



عام ٢٠١١، انتشرت بشكل سريع وكبير انتفاضات في الدول العربية التي أطاحت بعدد من الأنظمة الديكتاتورية الهشة في غرب آسيا.

ربما يثير الاكتئاب مقدار التقدم الذي أحرزته تلك الانتفاضات، فالحرب في سوريا لا تزال مستمرة، كما أن مصر حصل فيها انقلاب عسكري في منتصف عام ٢٠١٣، ولا تزال اليمن غارقة في العنف وعدم

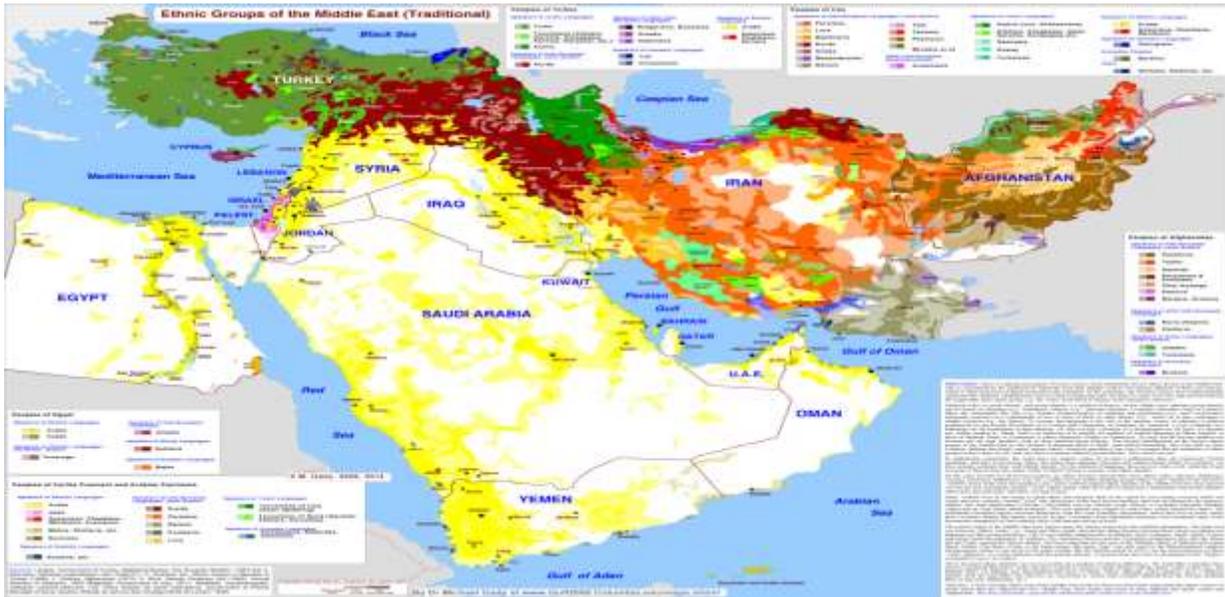
الاستقرار السياسي، الحرب في ليبيا أطاحت بالقذافي لكنها تركت البلاد دون أمن أو حكومة فاعلة، ربما تبدو تونس هي الدولة الوحيدة التي تتحرك ببطء شديد نحو شكل دولة ما.

١٠. الخلاف بين المحور الممانع والمحور الأمريكي



تستغل الدول الكبرى الإختلاف المذهبي بين المسلمين في السياسة بوضوح، هناك صراع إقليمي بين القوى السياسية في المحور الممانع بصيغته الشيعية بقيادة إيران، في مقابل القوى الملحقة بأمريكا بصيغتها السياسية السنية (الوهابية) ، والتي تقف على رأسها السعودية، هذا الصراع يبدو مثل حرب باردة إقليمية ضخمة، بالإضافة لبعض المعارك بالوكالة في سوريا والعراق وأماكن أخرى، وفي الواقع هذه القراءة غير دقيقة، لأن الخلاف سياسي وتموضع دول على الخارطة، فهناك خلاف مثلاً قطري سعودي وصل إلى حد العدا المطلق وحصار على دولة قطر من باق دول ما يعرف بمجلس تعاون الخليج الفارسي .

١١ . المجموعات العرقية المختلفة في المنطقة



العرب، باللون الأصفر، هم المجموعة الغالبة في بلدان غرب آسيا وشمال أفريقيا. الاستثناءات في فلسطين المحتلة، وتركيا، وإيران، وأفغانستان. لكن اللون الأحمر في الوسط مهم للغاية، إذ أنه يمثل الأكراد، الذين ليس لديهم بلدًا يجمعهم، لكنهم ينتشرون في إيران والعراق وسوريا وتركيا. من أهم ما تقوله تلك الخريطة أن هناك حزام من التنوع العرقي يُلاحظ في من تركيا إلى أفغانستان.

١٢ . الغاز والنفط في غرب آسيا

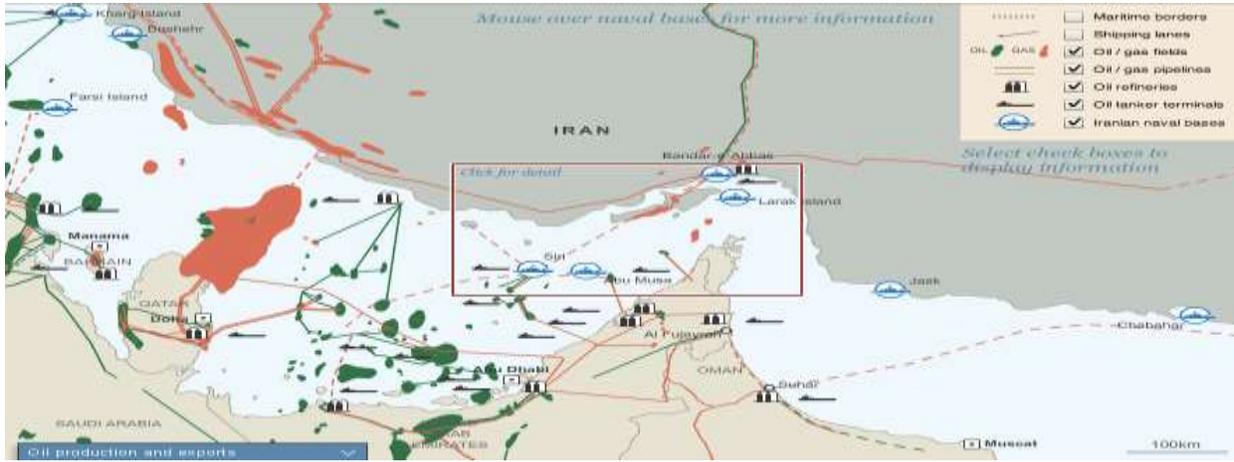


تنتج منطقة غرب آسيا نحو ثلث نفط الكوكب ! ، وأكثر من عُشر احتياجه من الغاز الطبيعي، وتحتوي المنطقة على أكثر من ثلث احتياطات الغاز الطبيعي في العالم، جزء كبير من ذلك يتم تصديره مما يجعل الاقتصاد العالمي بأسره معتمداً على استمرار تدفق هذا النفط والغاز في هذه المنطقة التي شهدت قدراً هائلاً من الصراعات في العقود القليلة الماضية .

هذه الخريطة تُظهر موارد النفط والغاز وكيف يتم نقلها برًا أو بحرًا عبر الخليج الفارسي، الخليج نفسه قضية أخرى، فهو يضم أحد أكبر احتياطات الطاقة في المنطقة والعالم، لكنه مُحاط بثلاث دول بينها عداءات تاريخية، إيران، العراق والمملكة العربية السعودية .

الولايات المتحدة تدخل دومًا عميقًا في صراعات تلك الدول، فقد دعمت العراق في حربها ضد إيران في ثمانينيات القرن العشرين، ووقفت ضد العراق عندما غزت الكويت وهددت السعودية في التسعينات، وضد العراق أيضًا في ٢٠٠٣ أثناء الغزو ثم الاحتلال، وبعدها تدعم المملكة العربية السعودية بشكل ما في حربها المستمرة في سوريا ضد إيران.

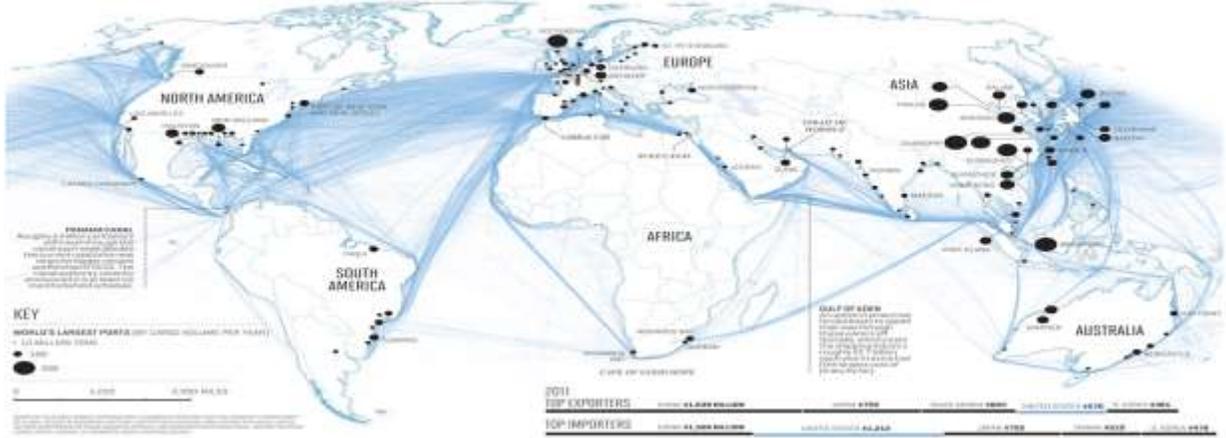
١٣ . التجارة والنفط في مضيق هرمز



يعتمد الاقتصاد العالمي على هذا الممر المائي الضيق الذي يفصل بين إيران وشبه جزيرة العرب، فمنذ أصدر الرئيس الأمريكي جيمي كارتر "مبدأ كارتر" عام ١٩٨٠، والذي أعلن فيه أن الولايات المتحدة قد تستخدم القوة العسكرية للدفاع عن قدرتها على الوصول إلى نفط الخليج الفارسي ، تحولت منطقة مضيق هرمز إلى أكثر المسطحات المائية تسلحًا على الإطلاق.

ثبتت الولايات المتحدة قوة بحرية كبيرة هناك، أولاً: لحماية صادرات النفط أثناء الحرب بين العراق وإيران في الثمانينيات، ثم لحمايتها كذلك من صدام حسين في التسعينات أثناء حرب الخليج، ثم الآن لحماية تلك الصادرات من إيران التي ألمح قادتها إلى إغلاق مضيق هرمز للضغط على إسرائيل والولايات المتحدة .

١٤ . لماذا يهتم العالم بمصر؟ وما أهمية قناة السويس؟



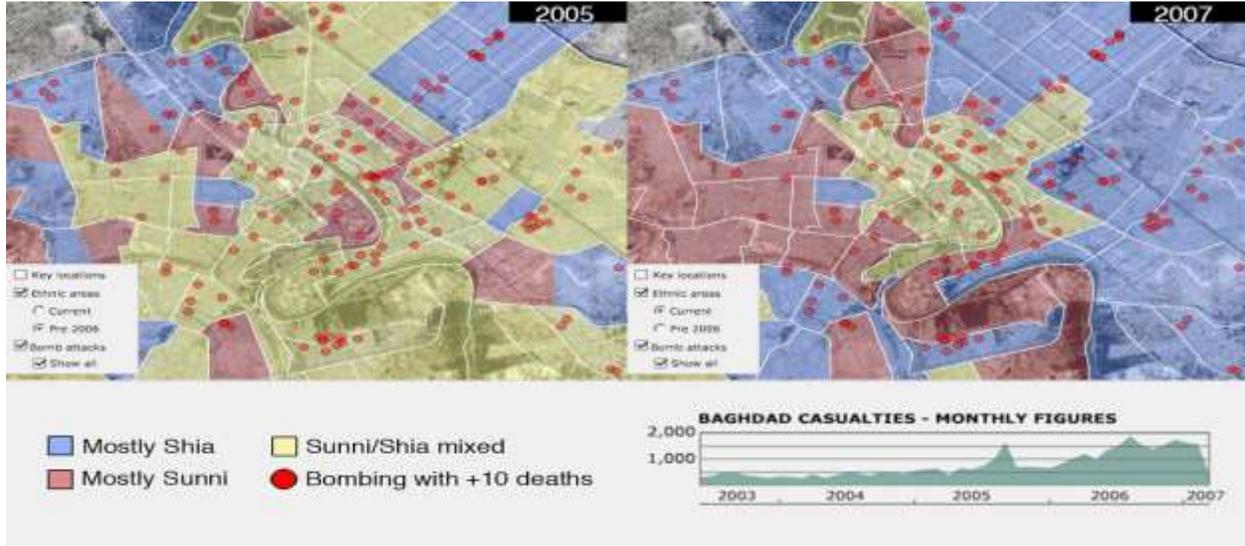
لقد غيرت قناة السويس كل شيء! ، فبعدما افتتحت مصر القناة عام ١٨٦٨ ، بعد عشر سنوات من العمل، قَرَّب الممر المائي - الذي يبلغ طوله ١٠٠ ميلاً - أوروبا وأسيا بشكل دراماتيكي وفوري! ، لقد كانت أهمية القناة واضحة للغاية بالنسبة للبريطانيين عندما غزوا مصر بعد أقل من ١٥ سنة من افتتاح القناة، حينها وقعت القوى العالمية الكبرى معاهدة لا تزال سارية المفعول، تؤكد أن القناة ستكون مفتوحة إلى الأبد للتجارة العالمية والسفن الحربية من كل أمة مهما كانت! ، اليوم هناك أكثر من ٨٪ من التجارة العالمية، و٣٪ من إمدادات الطاقة العالمية تمر عبر قناة السويس.

١٥ . كيف تغيرت حدود إيران في أوائل القرن العشرين



إن إيران هي الدولة الوحيدة من بلدان غرب آسيا التي لم تُحتل أبدًا من قبل أي قوة أوروبية، لكنها كانت على وشك أن تُحتل في بدايات القرن العشرين، فقد فقدت الكثير من أراضيها لروسيا، وهي تلك المخططة بالأحمر في الخريطة، وبعد ذلك قسمت روسيا وبريطانيا شمال إيران وجنوبها إلى مناطق نفوذ ، لم تكن إيران تحت السيطرة المباشرة، لكن مواردها كانت مُستغلة بشكل كبير.

١٦ . التطهير العرقي في بغداد أثناء حرب العراق



كانت هناك العديد من الشواهد السوداوية للدمار الذي خلفته حرب العراق، الخريطة تبرز كيف كانت تبدو مدينة بغداد بين عامي ٢٠٠٥ و ٢٠٠٧، بعد عامين من الحرب بين السنة والشيعية، التفجيرات وفرق الموت والمليشيات وعمليات الإخلاء بالإكراه أثرت بشكل فعال على تشكيل العاصمة العراقية .

فبعد أن كان الجميع يعيشون سويًا في معظم المناطق، سيطر الشيعة (اللون الأزرق) على معظم مناطق بغداد، وانتقل السنة إلى أماكن يعيشون فيها وحدهم (اللون الأحمر)، وتمثل النقاط الحمراء التفجيرات التي أدت لوفاة الكثيرين .

١٧ . أين يقطن الأكراد، وكيف يمكن أن تبدو كردستان؟



المجموعة العرقية المعروفة باسم الأكراد، عاشوا أقلية (محرومة) في العديد من دول غرب آسيا، وقاتلوا من أجل دولة خاصة بهم لفترة طويلة ، هذه الخريطة تبين الأماكن التي يعيشون بها، وتبين أيضا كيف فشلت الحدود الوطنية في فصل الأكراد.

خاض العديد من الأكراد في أعمال تمرد مسلحة في سوريا وتركيا، وعانوا من العديد من الانتهاكات، بداية من محاولات الإبادة الجماعية " زمن صدام حسين " وحتى فرض الحظر الرسمي على لغتهم وثقافتهم، لكنهم فازوا بمعركة واحدة بالفعل في العراق، نتيجة للغزو الذي قاده الولايات المتحدة، استطاع أكراد العراق إقامة منطقة حكم ذاتي في شمال العراق.

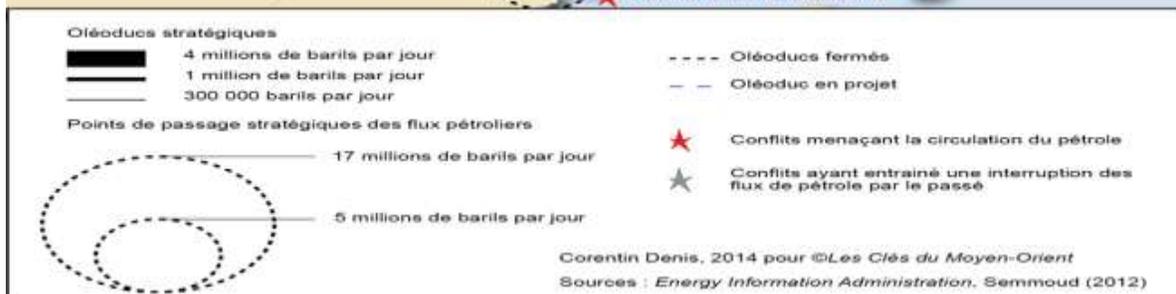
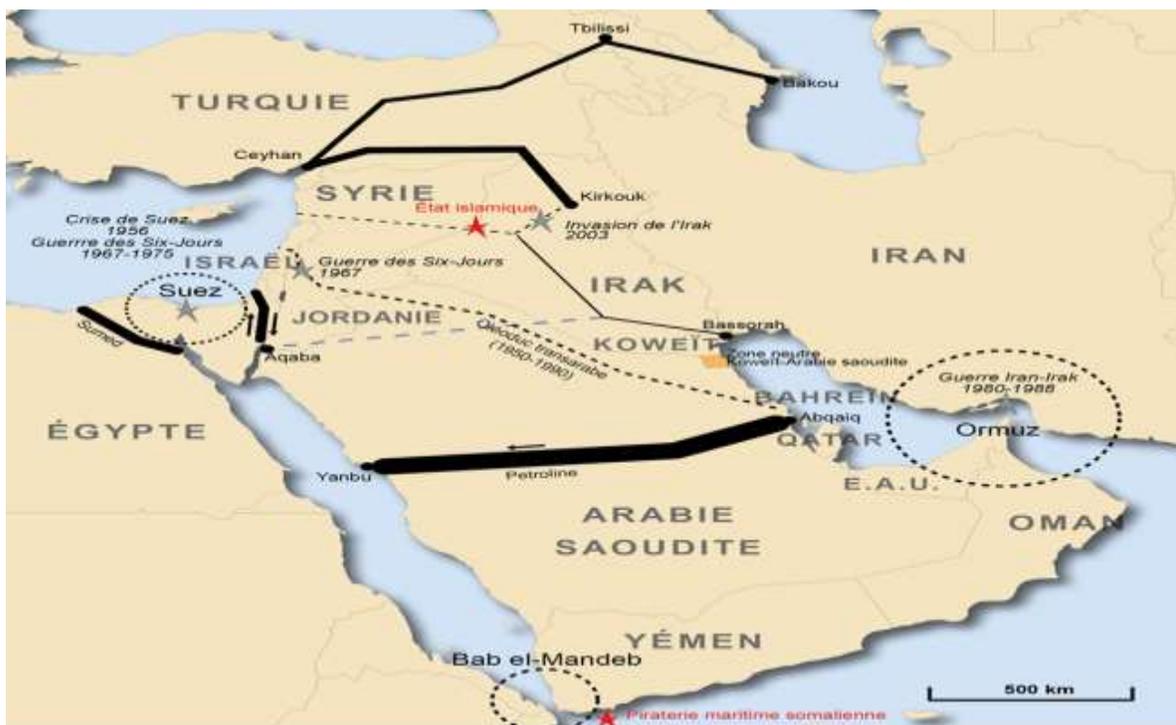
١٨ . حدود افتراضية جديدة في سوريا والعراق



هذه ليست فكرة جديدة، فهي تحصل على اهتمام ما كل عدة سنوات، خاصة عندما يشتعل العنف بين السنة والشيعية، الفكرة تقول: يجب أن تُستبدل الحدود التي فرضتها القوى الأوروبية في سايكس بيكو بحدود جديدة تراعي الطوائف المختلفة المنقسمة أكثر من أي وقت مضى" وقد تبنتها الإدارات الامريكية السابقة والحالية".

إنها فكرة غير واقعية بالفعل، وغالبًا ما ستخلق مشاكل جديدة، لكن بشكل من الأشكال، هذا ما قد تبدو عليه المنطقة إذا أُعيد ترسيم حدودها ، فالشيعية سيسيظرون على شرق العراق، والسنة سينتشرن في غرب العراق وشرق سوريا، وفي الوقت نفسه سيسيظرن النظام السوري العلوي على مناطق الشيعة والمسيحيين في الغرب ، الأكراد المستقلون في العراق سيستقلون كذلك في سوريا، مرة أخرى، هذه ليست خريطة حقيقية ولا أمنية، فالسوريون والعراقيون وحدهم من سيرسمون مستقبلهم .

١٩ . الممرات الإستراتيجية وتهديدات إمدادات النفط.



تمثل الصراعات الجيوسياسية تهديدات لبلدان المنطقة، تعطيل إنتاج النفط في مراحله الأولى أو إحكام القبضة على الإنتاج تمثل أهم المخاطر التي تتسبب بها "لعبة" التحالفات والصراعات الإقليمية، " برعاية أمريكية " .

أثناء حرب ١٩٦٧ مثلاً كان احتلال إسرائيل لهضبة الجولان سبباً في إغلاق خط الأنابيب عبر البلدان العربية والذي يمكّن النفط السعودي من التدفق مباشرة إلى البحر المتوسط دون المرور عبر قناة السويس ولا عبر مضيق باب المندب أو مضيق هرمز، وقد واصل هذا الأنبوب مد الأردن بالنفط حتى سنة ١٩٩٠ ويعمل الأردن الآن على أن تصله إمداداته النفطية عبر البصرة في العراق، إذ يوجد مشروع لإنجاز أنبوب ينطلق من هناك ليصل إلى ميناء الأردن بالعقبة.

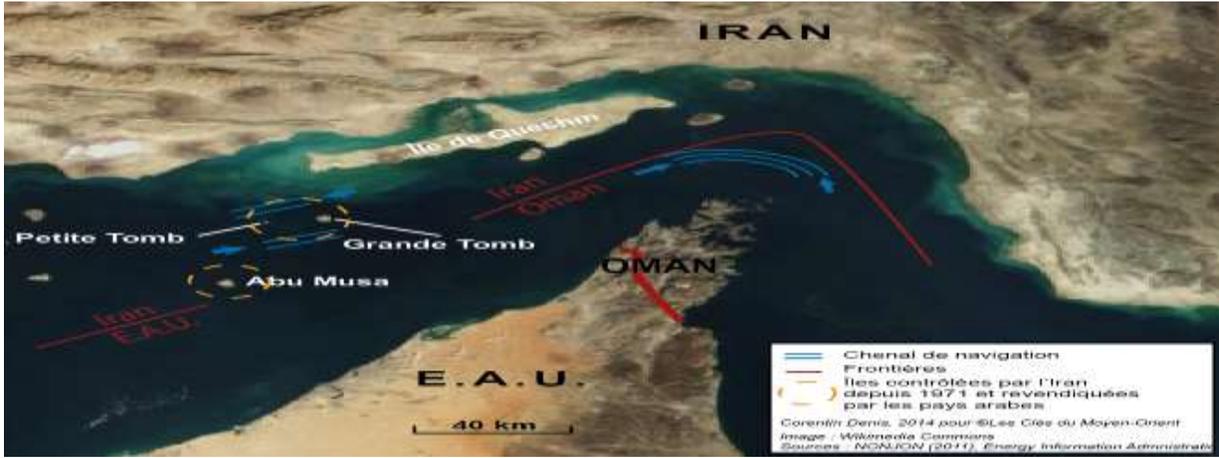
وفي الثمانينات أثرت حرب الخليج الأولى على تدفق النفط في المنطقة، حيث تم إغلاق مضيق هرمز من قبل إيران مرات متتالية ولفترات طويلة، وفي سنة ١٩٨٢ عمدت سورية إلى إغلاق أنبوب كركوك - بانياس مساندة لإيران على حساب العراق، ومنذ إعادة فتحه تم إتلاف هذا الأنبوب النفطي خلال الغزو الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣ ومنذ ذلك الوقت يتم إجلاء النفط المستخرج من كردستان العراق من قبل تركيا.

الصراع الحالي في المنطقة تسبب في انخفاض حاد في إنتاج النفط (انخفاض من ٣٨٠ ألف برميلاً من النفط الخام في اليوم سنة ٢٠١٠ إلى أقل من ٦٠ ألف برميلاً في اليوم سنة ٢٠١٣)، بالإضافة إلى ذلك فإن العقوبات التي سلطتها الولايات المتحدة وأوروبا على سورية تمنعها من التصدير، كما أن تواجد تنظيم "الدولة الإسلامية - داعش" المسلح في المنطقة النفطية تسبب في أضرار للبنية التحتية وفي استحواذ هذا التنظيم على بعض الآبار من أجل تمويل الحرب سابقاً، والتواجد الأمريكي ومليشيات قسد حالياً يؤدي إلى نفس النتائج على الاقتصاد السوري .

تعتبر المضايق مناطق حساسة ولذلك فإن الأنظار تتركز عليها.

يقوم الناتو بعملية في خليج عدن يهدف من خلالها إلى القضاء على القرصنة في القرن الأفريقي، هذا الخطر حقيقي فمثلاً في سنة ٢٠٠٩ تم تحويل وجهة ناقلة النفط السعودية "سيريز ستار" من قبل قرصنة صوماليين بالقرب من باب المندب بينما كانت تحمل ٢ مليون برميلاً إلى الولايات المتحدة، وقد تم إخلاء سبيلها في صفقة قدرت بملايين الدولارات.

٢٠. نموذج مضيق هرمز: ممر غير آمن لتدفق النفط العالمي.



مضيق هرمز يمتد على ٤٠ كيلومترًا ويقع في المياه الإقليمية العمانية ويمر منه قرابة ٣٠% من النفط العالمي، وينظر العالم كله إلى هذا المضيق نظرًا لأهميته، إذ إن إغلاقه يؤدي إلى نتائج كارثية للاقتصاد العالمي، يجدر الإشارة إلى أن الأنابيب السعودية باستطاعتها أن تمتد حول المضيق لكن ذلك ينقص من قوة تدفق النفط داخلها، وتهدد إيران باستمرار بالمرور من مرحلة القول إلى مرحلة الفعل والتطبيق.

بالنتيجة نرى أن النزاعات والحروب في منطقة غرب آسيا ، والتي استغل فيها تنوعها العرقي والاثني والديني ، والحرية وحقوق الانسان وغيرها من الشعارات التي استحدثت وما زالت تستحدث ، ما هي الا صراعات سيطرة ونفوذ من الدول الاستكبارية " امريكا " حاليا ، وأوروبا سابقا ، على منطقة غنية بالموارد الطبيعية " نفط وغاز " ، وتتمتع بموقع جغرافي يربط الشرق بالغرب ، وممرات مائية ذات أهمية كبرى للاستكبار العالمي ، من يسيطر عليها يتحكم بجزء كبير من الموارد والتجارة العالمية .

فالصراعات والحروب في غرب آسيا ليست حديثة ، وهي محتدمة منذ القدم بين الامم والامبراطوريات ، وصولا لعصرنا الحالي ، والذي يدور الان بين محورين : محور المقاومة وعلى رأسه الجمهورية الاسلامية الايرانية ، الذي يرفض الخضوع ، وهيمنة عليه ، ويطالب بالتححرر من التبعية ، وادارة المنطقة من قبل شعوبها ومؤسساتها ، والثاني المحور الامروصهيوني الاستكباري الذي يسعى للسيطرة على مقدرات وامكانات وموارد المنطقة، والذي يرى اتباعه ومناصره بقاء سلطتهم بوجوده .

أن مستقبل هذه منطقة غرب آسيا يتطلب من شعوبها ان تقرره بنفسها ، اما التبعية للاستعمار الميداني والاقتصادي والثقافي والاجتماعي والسياسي مما يسلبها كيانها المجتمعي كله ، او التححرر من جميع انواع التبعية وتقرير مصيرها بنفسها .

المصادر :

- ٣٣ استراتيجية للحرب (روبرت غرين) .
- مفهوم بسيط وقديم قدم الاستعمار ، من خلال خلق وإدارة النزعات في غرب آسيا ، وإضعاف العدو من خلال تقسيمه وشرذمة قواه .

(Dividing Enemies)

- فتح المجال للقوى الكامنة ، والمكونات المتنوعة داخل المجتمعات التعددية للحراك والاحتكاك بالبيئة المحيطة ، لخلق مساحة ضعيفة السيطرة والاستقرار ، وقابلة لإعادة التموضع جغرافيا وديموغرافيا ، أو خلق فراغ يسمح بالتدخل الأجنبي .

(Democracy)

- الولايات المتحدة الأمريكية المتسلط الناعم

(جيل بريس) Gill Briss

- الأطلس (خرائط العالم السياسي)
- اطلس (خرائط توزع الاديان في العالم)
- إدارة الأزمات الإستراتيجية
اللواء أركان حرب د . علي بن لهلول
رئيس قسم البرامج الخاصة بكلية التدريب
جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
الرياض